صورة مجتمع جميل بثينة في شعره

عبده يحيى صالح الدباني*

الملخص

جذبت ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي اهتمام الدارسين قديما وحديثا، نظرا لأهميتها وطرافتها وارتباطها بزمان ومكان محددين، وإذا كان النقد العربي القديم قد اكتفى بملاحظات ميزت الظاهرة عن سواها، وشعراءها عن غيرهم؛ فإن النقد الحديث قد قارب هذه الظاهرة وفق مناهج نقدية مختلفة سياقية ونسقية أضاءت كثيرا من جوانبها، ولكن مثل هذه الظواهر الأدبية الكبرى في تراثنا تظل بحاجه إلى مزيد من الكشف من خلال دراسة جزئياتها بعناية؛ لتعزيز نتائج سابقة، أو للوصول الى نتائج جديدة ، ومن هنا اتخذ هذا البحث جزئية من جزيئات هذه الظاهرة الفريدة ميدانا له وهذه الجزئية هي : صورة مجتمع الشاعر جميل بن معمر العذري كما تجلت في شعره؛ من خلال تتبع أعضاء المجتمع الذي عاش الشاعر في وسطه من أقارب وأباعد وعامة الناس، كما تجلو في شعره أفرادا أو جماعات، من غير التطرق إلى صورة بثينة في شعر جميل؛ لأنها النصف الآخر من التجربة العذرية التي نسعى إلى معرفة موقف المجتمع منها سلبا وإيجابا، ولكن بثينة ستفرض نفسها على هذا البحث في مواطن مختلفة لاسيما حين كان الشاعر يعدها بديلا لمجتمعه أو لأفراد منه أو لأشياء مهمة في حياته. لسنا من الذين يعدون الشعر وثيقة دامغة على ما تضمنته من معان وأفكار وحوادث ولكننا وجدنا أن الشعر العذري لم يكن ترفا فنيا ولا فكريا بقدر ما كان تعبيرا عن قضية واقعية وتاريخية واجتماعية .

ولم نلجأ إلى الأخبار والقصص النثرية العذرية لمعرفة علاقة الشاعر بمحيطه الاجتماعي ولكننا استنطقنا شعره الذي صور تلك العلاقة بعد أن قرأنا ديوانه بيتا بيتا وجمعنا منه مادة بحثنا. لقد اقتصر الشاعر في ذلك المحيط الاجتماعي المغلق على ذكر كل من العذال والوشاة والرقباء والأصدقاء وأهل بثينة وأهله هو، مشيرا إلى عامة الناس أحيانا وإلى المنافسين له في حب بثينة والمنافسين لبثينة في حبه، ولم يغب الحاكم عن شعر جميل وموقفه من الشاعر وتجربته العذرية. لقد وقف البحث أمام موقف كل هؤلاء من التجربة العذرية على اختلاف هذه المواقف بين السلب والإيجاب. وقد كشف البحث عن طغيان جبهة الأعداء في شعر الشاعر من عواذل ووشاة ورقباء وغيرهم. لقد كانوا كثيري الدوران في شعره والمتهم الأول في فشل التجربة بينه وبين بثينة، لقد كان موقفهم بوجه عام سلبيا عدائيا ...

أما الأصدقاء فلم يكونوا كثرا ولم يرد ذكرهم كثيرا، لقد تعاطفوا مع الشاعر في محنته ونصحوه لكي يتجاوزها، ولكن من غير جدوى، وكذلك كان عامة الناس أقرب إلى هذا الموقف، أما أهل الشاعر فقد بدوا منكوبين بابنهم الذي لج به الهوى فكانوا في موقف من يرثيه وهو حي. وأما أهل بثينة من أب وزوج وأخوه وأولاد عم؛ فقد كانوا دائمي الحضور في شعر جميل بما تميزوا به من موقف عدائي إلى درجة التربص بالقتل. وقد بين البحث في متنه صورة المنافسين لجميل في حب بثينة، والمنافسات لبثينة في حب جميل، وكان هذا هو الاستثناء الذي يعزز قاعدة توحيد المحبوب في الحب عند العذريين، أما الحاكم فقد بدا في صف أعداء الظاهرة العذرية .

وهكذا يتبين للبحث أهمية التفسير الاجتماعي للظاهرة العذرية من بين تفسيرات أخرى تعرض لها الدارسون، وأن الشاعر جميل بثينة ضعيف الاندماج في مجتمعه أي منزو اجتماعيا؛ لأن العشق في الأصل نشاط داخلي لا خارجي لاسيما في مراحلة المتقدمة .

المقدمة:

تعد ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي من أبرز الظواهر في أدبنا العربي القديم، وقد أشار إليها نقادنا العرب القدماء إشارات سريعة، وميزوا شعرها عما سواه، أما المحدثون فقد أفاضوا في دراسة هذه الظاهرة وفق مناهج نقدية مختلفة.

بيد أن بحثنا هذا سيدرس جزئية موضوعية في هذه الظاهرة، لم تدرس من قبل بهذه العناية والتركيز بل أشير إليها ضمن دراسة الظاهرة بوجه عام وهذه الجزئية – موضوع بحثنا – هي صورة مجتمع الشاعر جميل بثينة من خلال شعره العذري.

وبما أن الظاهرة العذرية متماسكة أشد التماسك فإن دراسة أي جانب من جوانبها أو جزئية من جزئياتها

* استاذ مشارك بقسم اللغة العربية – كلية التربية – جامعة عدن.

ستؤدي بالضرورة إلى إضاءة الظاهرة بوجه عام وزيادة المعرفة بها؛ فقطرة من الدم في المختبر الطبي تغني عن الدم في الجسم كله لفحصه ومعرفة مكوناته وغير ذلك.

إن دراسة صورة أفراد المجتمع الذي أحاط بالتجربة العذرية بين جميل وبثينة – كما تجلت في شعر جميل – لا تعني بشكل مباشر دراسة الأسباب الاجتماعية لوجود الظاهرة العذرية في ذلكما الزمان والمكان، أو استقصاء أثر المجتمع في تجربتي الحب والشعر عند العذريين، أو عند جميل بوجه خاص؛ ولكن البحث يسعى بطريقة مباشرة إلى بيان ملامح أفراد ذلك المجتمع وعلاقتهم بالتجربة العذرية عند العاشقين وموقفهم منها من خلال شعر جميل نفسه، وليس من خلال التاريخ والأخبار والقصص النثرية العذرية . ولن يتعرض البحث لصورة بثينة في شعر جميل لأن هذا موضوع آخر ولأنها تشكل الطرف الآخر من طرفي التجربة العذرية التي سندرس موقف المجتمع منها، ولكن بثينة ستكون كثيرة الدوران في هذا البحث كما كانت كثيرة الدوران في شعر جميل العذري؛ أي أنها ستبرز من خلال تتبعنا لأنماط ذلك المجتمع في تعامله مع العاشقين جميل وبثينة، وستبرز كذلك عندما عدها الشاعر بديلا عن مجتمعه، وعندما حلت محل أمور عديدة في حياته.

لقد دأبت كثير من الدراسات على التنظير للظاهرة العذرية من خارج الشعر العذري معتمدة على التاريخ والجغرافيا وتاريخ الأدب وغيرها من المصادر، وهذا ما لم يعتمده بحثنا الذي انطلق من الشعر نفسه، مع إيماننا بأن الشعر عموما ليس وثيقة تاريخية دامغة ولكنه مع ذلك لا يخلو من حقائق تاريخية واجتماعية ونفسية، ثم إن الشعر العذري خاصة لم يكن ترفا فنيا، ولكنه كان في الغالب تعبيرا عن قضية واقعية وموضوعية ملحة.

العذال ومن شاكلهم :

لقد تنوع ذكر العذال ومن شاكلهم في شعر جميل ممن سماهم العلماء ب(آفات العشق)[1]، وهو ذكر سلبي على كل حال ، فمن هذه المعاني التفصيلية التي رسمت صورة متكاملة للعذال والوشاة وغيرهم من أعداء التجربة العذرية في شعر جميل بثينة، ما كان يقوله الشاعر من دعاء صادق وجاد على هؤلاء الذين حولوا حياته وحياة بثينة إلى جحيم إذ يقول[2] :

أعاذلتي فيها لك الويل فاقصري

من اللوم عني اليوم أنت فداؤها

فهذه العاذلة اللوامة قد ألحت ولجت في عذلها الشاعر في بثينة بما يعذبه، فلجأ إلى الدعاء عليها بالويل، وجعلها فداء لبثينة؛ فهو دعاء مشفوع بالتمسك ببثينة وعدم التصديق فيها، وهو كذلك نوع من الرفض لهذا التربص بالتجربة العذرية من أعدائها، فهذه التي تعذل ليست بعيدة عن الوشاية والرقابة .

وفي موطن آخر من هذه المعركة بين التجربة العذرية وخصومها في ذلك الوسط الاجتماعي المغلق؛ نجد جميلا يدعو على العذال رفضا لهم، ورغبة في الخلاص منهم، حيث ضاقت الحيل وسدت أبواب الوصل؛ اذ يقول[3] :

فليت وشاة الناس بيني وبينها

يذوف لهم سما طماطم سود

وليت لهم في كل ممسى وشارق

تضاعف أكبال لهم وقيود

فهذا تمنٍ عجيب، لقد أراد أن يقيدهم عن الحركة فلا يسعون خلفه وبثينة، ويبثون الأخبار ليزداد المشهد العذري تعقيدا ومأساة. وهناك شواهد شعرية أخرى لمثل هذا الدعاء على من يتربص بهذه التجربة العذرية .[4]

كان جميل أكثر مقاومة للعذال ومن شاكلهم من أعداء التجربة العذرية، بينما كانت بثينة أكثر رضوخا لهم وأكثر حذرا وتحذيرا من تربصهم، ولعلها الطرف الذي دفع ثمنا أكبر من حياته وشرفه وكرامته وعشقه العذري إزاء وجود هذا العدد الجم من العذال ومن شاكلهم في مواجهة التجربة العذرية؛ هاهي بثينة على لسان جميل تصفهم[5]:

وقالت: عيون لا تزال مطلة
علينا وحولي من عدوك كشح
إذا جئتنا فانظر بعين جلية
إلينا ولا يغررك من يتنصح
رجال ونسوان يودون أنني
وإياك نخزى يا ابن عمي ونفضح
وحولي نساء إن ذكرت بريبة
شمتن وما منهن إلا سيفرح

فما هذه العدوانية إزاء التجربة العذرية في المجتمع البدوي المغلق؟ فهناك عيون ما برحت تراقب العاشقين كأن ذلك وظيفة أو فرض، ومن حول المحبوبة نفسها أعداء وكاشحون؛ أي أن دائرة هؤلاء الخصوم من حول التجربة العذرية تتسع وتضيق، بل هي دوائر كل واحدة منها تقع داخل الأخرى مثل الحراسات الشديدة من حول السجن والسجناء، حتى الذي يبدو أنه ينصح فهو من المتربصين وأولى بأن يحذر منه. إذن ثمة رجال ونساء يطبقون الحصار حولهما ولكنهم هنا يريدون أن يكتشفوا أمرا على العاشقين، يقود ذلك إلى خزيهما وفضحهما في الحي والقبيلة، وحينذاك تشمت الشامتات وتفرحن. وليس الغرابة فيما يفعله العاشقان من أساليب مأزومة للتواصل في ظل ذلك التربص والرقابة والأجواء الخطرة، ولكن الغرابة تكمن في هذا الحشد العدائي المتأهب ضدا على العاشقين البائسين، فما دوافع كل ذلك؟ هل هو الحرص على الشرف؟ ولكن لمَ يريدون الخزي والفضيحة للعاشقين؟ ولمَ تفرح الشامتات ؟ بيد أن أعداء التجربة العذرية كثر، ولكلٍّ دافع وغاية ، لقد كانت الغيرة شديدة في مجتمع البادية[6].

لقد بدت بثينة أكثر فهما لذلك المسرح العذري من جميل نفسه؛ لأنه هو من يزورها، ولأن المرأة أكثر حذرا وأدق رصدا في مثل هذه المواقف لا سيما في ذلك المجتمع البائس الذي يحسد البائسين على بؤسهم، وطالما ارتفع صوت بثينة في شعر جميل محذرا من الوشاة والرقباء والعذال وغيرهم. لقد كان جميل مندفعا اندفاع العاشق الذي ذهب به الحب كل مذهب، وكانت بثينة خائفة – وإن كانت عاشقة مثله – ولكنها أقرب إلى التأني والصبر والتوازن، ومراعاة المحيط الاجتماعي وعدم إظهار العشق وسلوكه أمام محيطها الأسري والقبلي.

هاهو جميل ينقل تحذيرها إلى شعره بكل يسر إذ يقول[7] :

وطرفك إما جئتنا فاحفظنه
فزيغ الهوى باد لمن يتبصر
وأعرض إذا لاقيت عينا تخافها
وظاهر ببغض إن ذلك أستر
فإنك إن عرضت بي في مقالة
يزد في الذي قد قلت واش مكثر
وينشر سرا في الصديق وغيره
يعز علينا نشره حين ينشر
وما زلت في إعمال طرفك نحونا
إذا جئت حتى كاد حبك يظهر
لأهلي حتى لامني كل ناصح
شفيق له قربى لدينا وأيصر
وقطعني فيك الصديق ملامة
وإني لأعصي نهيهم حين أزجر

إن بثينة – على خوفها – كانت قوية الشخصية، كما رسمها لنا جميل في شعره، ولو لم تكن كذلك لما احتملت ما احتملت من كل ألوان الزجر والتأنيب والعذل والشماتة وغيرها، ولما استمرت تلك التجربة العذرية بين العاشقين زمنا طويلا رغم زواجها من رجل آخر؛ لكنها مع ذلك ظلت متماسكة ومتوازنة لم تترك جميلا وحبه ووصله، ولم تبالغ مبالغته وتهيم في الصحراء وتفقد الإرادة مثله، وهذا خلق نسوي أودعه الله تعالى في المرأة .

فعلى الرغم من أن تجربتهما قد عبرت حدود القبيلة، وصارت حديث الركبان، تطوف البلدان والزمان على جناح الشعر العذري وحكاياته المثيرة؛ فإنها في محيطها الضيق تريد أن تخفي معالم التجربة، وتعقلن الحب وتلقي على جميل دروسا في الكبت والكتم والتحفظ والحذر وحسن التصرف والمداراة وعاقبة التفريط بكل ذلك، ولكنها في الوقت ذاته ترفض ذلك الزجر حين يشتد وتدافع عن نفسها لا عن فقدان إرادة – كما كان يفعل جميل إزاء من يلومه– ولكن عن توازن كما ذكرنا، فليس ثمة استسلام للهوى والعشق عند بثينة، ولا استسلام كامل للمنع والقمع المبالغ فيهما.

ويقول جميل في موقف آخر، متذكرا مواقفه الجميلة مع بثينة، مرددا ما كانت تقول استحبابا واسترجاعا[8] :

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها

غداة انصداع الشعب: هل أنت واقف؟

ولا قولها بالخيف أنى أتيتنا

حذار الأعادي أو متى أنت عاطف

ولا قولها لي يا جميل احفظنني

ونفسك من بعض الذين تلاطف

بني عمي الأدنين منهم وغيرهم

من الناس ضمتهم إليك المعارف

لسنا هنا بصدد ظاهرة استرجاع الذكريات والعيش في الماضي التي حفل بها الشعر العذري بسبب أزمة حاضرهم[9]، ولكننا أمام ظاهرة التحذير الذي طالما وجهته بثينة لجميل من أقارب وأباعد، حتى من أولئك الذين يتلطفون خوفا من أن يستدرجوا جميلا فيخبرهم ببعض مواقفه معها، وكأن قصتهما لا يعلمها أحد، أو أن الناس يعلمون ما ظهر منها فحسب، ثم ما قيمة كل هذا التحذير بعد أن صار شعرا يتداوله الناس؟ والعجيب أن بثينة لم تحذر مرة جميلا بعدم نقل كلامها إلى شعره، حتى لقد قال العقاد: إن جميلا كان أحمق حين قال :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها

أخذت علي مواثقا وعهودا[10]

فنظرا لتربص كل هؤلاء بالتجربة العذرية ، تحولت بثينة وكأنها جهاز أمن يحمي هذه التجربة ويستقصي خصومها ، وهناك شواهد أخرى تقع في هذا الاتجاه [11].

ولكن ما أثر ذلك الحشد من العذال والوشاة والرقباء وسائر الأعداء في العلاقة والتواصل بين العاشقين؟

لقد تضمن شعر جميل الإجابة عن هذا السؤال، فمن ذلك قوله على لسان بثينة [12]:

فقالت أخاف الكاشحين وأتقي

عيونا من الواشين حولي شهدا

وقوله [13]:

يكذب أقوال الوشاة صدودها

ويحتازها عني كأن لا أريدها

وقوله[14]:

ليت شعري أجفوة أم دلال

أم عدو أتى بثينة بعدي

وقوله[15]:

وإن تك قد حالت عن العهد بعدنا

وأصغت إلى قول المؤنب والمزري

فسوف يرى منها صدود ولم تكن
بنفسي من أهل الخيانة والغدر

وقوله[16]:

فقالت : فنخشى إن سقيناك شربة
تخبر أعدائي بها فتبوح

وقوله[17]:

وكنا جميعا قبل أن يظهر النوى
بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا
بطون الهوى مقلوبة بظهور

هكذا تجلى الأثر السلبي لكل هؤلاء المحاربين في مسيرة التجربة العذرية عند جميل وبثينة بوصفهما مثالا للتجربة العذرية بوجه عام في ذلك العصر الذي أبرزها والمكان الذي تمخض عنها .

فالمحبوبة تخافهم، فتمتنع عن وصل المحب حتى بنظرة أو إشارة، وتصد حتى تكذب أقوالهم وما يأفكون وتخلف الوعد وتنزع عن العهد تحت ضغط ذلك المجتمع الذي تطرف وتعنت في قمع المحبين، ولم يساعد على إنجاز اللقاء الشرعي بينهم عملا بقول النبي (ﷺ): " لا أرى للمتحابين مثل النكاح "[18] وهي كذلك لولا خوفها من أن يخبر جميل أعداءها؛ لسقته شربة كما كان يرغب ويلح ويتمنى.

لقد أثر سلوك العاذلين والواشين في سلوك العاشقين، وألجأهم إلى الكبت وإلى التظاهر بسلوك غير حقيقي، وأحيانا إلى تصديق ما يقوله هؤلاء من عذل ووشاية وزجر وتأنيب ونصح قاسٍ، ولكنه تصديق مؤقت يقول جميل[19]:

ولا خاطبتها مقلتاي بنظرة
فتعلم نجوانا العيون النواظر
ولكن جعلت اللحظ بيني وبينها
رسولا فأدى ما تجن الضمائر

وقال[20]:

بينا حبال ذات عقد لبثنة
أتيح لها بعض الغواة فحلها

لم يشبع العاشق العذري حتى من النظر إلى من يحب، فالعيون هناك تترصده، وإدامة النظر نحو المحبوب تعني في هذه الأجواء المشحونة اكتشافه متلبسا بنظرته أو قل بجريرته ولذلك ما بعده من تحقيق ومحاكمة وأذى.

إن المحب قليل الحيلة وهو دائما على وجل، فها هي – بثينة التي طالما حذرت جميلا من العذال والوشاة – تصدق ما يقول الواشون في جميل وتنقض حبال المحبة التي عقدت بينهما ، ولكن كل ذلك كان إلى حين لأن الحبال العذرية عصية عن الحل والتقطيع والبلى، وها هو جميل يذكر العذال في مواطن أخرى شاكيا ومتبرما ومفلسفا للظاهرة؛ إذ يقول[21] :

وأصبحت أكمي الناس أسرار حبها
وللحب أعداء كثير وقارف

ويقول[22]:

أراني لا ألقى بثينة مرة
من الدهر إلا خائفا أو على رحلِ

ويقول[23]:

يا ليتنا والمنى ليست مقربة
إنا لقيناك والأحراس قد رقدوا

لقد صال وجال الشاعر في ميادين العشق العذري، مقتصرا على عشق بثينة، فكان يضمّن شعره خلاصة تجربته القاسية. لقد أضحى شعر العذريين مصدرا مهما للذين ألفوا في عاطفة المحبة والعشق في تراثنا العربي[24] ، فهاهو يقرر على سبيل الحكمة العذرية أن (للحب أعداء كثير وقارف) مستوحيا ذلك من معاناته في ذلك الوسط الاجتماعي الذي أجهض تجارب العذريين من أن تجد طريقها إلى النجاح.

لقد امتلأ الزمان بهؤلاء الأعداء مثل ما امتلأ بهم المكان؛ فهو – أي الشاعر – لا يلقى بثينة إلا خائفا أو على عجل؛ وكل ذلك بسبب كثرة الوشاة ومن شاكلهم، حتى الليل زمانا، والخيام مكانا، لا يبرحان

يحفلان بالأحراس، فصار ضربا من التمني أن يرقد أولئك، فكلما أمعن الشاعر العاشق في تربصه المحموم حول الديار أمعن الحراس في اليقظة والحذر؛ وهذا عكس ما وجدنا عند ابن أبي ربيعة الذي عاش في الحاضرة وغامر ليلا فنجح [25].

وإذا كنا قد وجدنا حتى الآن في شعر جميل الخوف من العذال والوشاة وغيرهم، والاستسلام لهم لا سيما عند بثينة، فإننا وجدنا كذلك في شعره نزعة الرفض لكل هؤلاء المتربصين بالتجربة العذرية، وعدم الانصياع لهم؛ يقول[26]:

ويوم معان قال لي فعصيته

أفق عن بثين الكاشح المتنصح

لقد قدم الشاعر العصيان والرفض على صاحب العذل وعذله، وأخر العاذل إمعانا في الرفض؛ ويقول[27]:

يا صاح عن بعض الملامة أقصر

إن المنى للقاء أم المسور

فزجر العاذل يعد رفضا لعذله بعد أن ضاق الشاعر ذرعا به؛ ويقول مخاطبا امرأة تعذله [28]:

أعاذلتي أكثرت جهلا من العذل

على غير شئ من ملامي ومن عذلي

فهذا رفض للعاذلة وعذلها وسخرية منهما وتعالٍ عليهما.

ويقول[29]:

يا عاذلي من الملام دعاني

إن البلية فوق ما تصفان

فهذا البيت يعد المطلع في القصيدة، وقد جاء مصرعا؛ لقد صار الحديث عن العذل والعذال عند العذريين موضوعا كثير الدوران في شعرهم، وقد يتصدر القصائد أحيانا لأهميته، وكأنه تقليد فني راسخ – وهذا أمر حري بالدراسة – والشاعر هنا يفند ما يذهبون إليه من عذل ويلغيه جملة وتفصيلا ، بحجة عذرية بالغة وبليغة وهي إن حال التجربة العذرية قد تجاوز مثل هذا اللوم والعذل فالمصيبة أو البلية – كما يرى الشاعر – لم يعد ينفع معها مثل هذا العذل أو اللوم، أو حتى النصح، لقد لج العذريون في الهوى بعيدا عن لغة العقل والمنطق والنصح والتقريع والتوجيه سواء أكان كل ذلك عن حسن طوية أم عن سوئها، وتبعا لذلك يقول الشاعر في موطن آخر[30]:

فما زادني الواشون إلا صبابة

ولا زادني الناهون إلا تماديا

ويقول[31]:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا

سوى أن يقولوا إنني لك عاشق

نعم صدق الواشون أنت كريمة

علينا، وإن لم تصف منك الخلائق

فهذا التصديق يعد رفضا وتحديا للعذال والوشاة، ولكل من يقف في طريق التجربة العذرية، لقد طال القمع واستشرس؛ فزاد التحدي العذري والتصميم، ولكن عن عاطفة وهوى، لا عن عقل وتدبر؛ كما جاء في قول جميل[32]:

يقولون مهلا يا جميل وإنني

لأقسم مالي عن بثينة من مهل

أحلما ؟ فقبل اليوم كان أوانه

أم اخشى فقبل اليوم أوعدت بالقتل

لم يعد جميل تهمه أحاديث العذال ومزاعمهم ولا توبيخاتهم إياه، لكنه كان يخاف وقع كل ذلك على بثينة، وأن يبعدها عنه، ويغيرها إزاءه؛ فيقول[33]:

ألا لا أبالي جفوة الناس ما بدا

لنا منك رأي يا بثين جميل

وما لم تطيعي كاشحا أو تبدلي

بنا بدلا أو كان منك ذهول

فما الناس عنده إلا بثينة، ولا ضير مما يقول الكاشحون – إن لم يؤثر في بثينة وسلوكها نحوه – فوحدانية بثينة هنا لا تقابل عدم تعلقه بنساء أخريات

فحسب، ولكنها أيضا تقابل المجتمع كله بمن فيه من أصدقاء وأعداء وأهل وغيرهم. ولكن خوف جميل على بثينة لم يمنعه من كشف أسرار العلاقة في شعره؛ حتى لقد ذهب خيرستو نجم إلى أن بثينة رمز وليست امرأة بعينها[34] ولكننا لا نوافقه على ذلك.

لقد بدا جميل في تجربته وشعره أكثر رفضا لمن كان يرفض التجربة العذرية، ويتربص بها على تنوعهم وتعددهم، أما بثينة فقد بدت أقل رفضا لذلك كما أنبأنا بذلك شعر جميل نفسه، ولكن استمراريتها في تلك العلاقة الخطرة مع جميل مثلت نوعا من الرفض والتحدي لكل أولئك، وربما نوعا من الانتقام. فهاهو جميل يلقنها الرفض على طريقته هو إذ يقول[35] :

بثين الزمي لا ، إن لا إن لزمتها

على كثرة الواشين أي معين

لقد رفضت وتحدت بطريقتها النسوية، أما جميل فقد كان رجلا حرا وفارسا شهيرا يرفض القمع، وشاعرا حول التجربة العاطفية العنيفة إلى نسيج شعري، أما بثينة فهي امرأة بدوية أسيرة أهلها وزوجها وقبيلتها، وقد قال النبي (ﷺ) في حديث طويل: " اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم "[36].

الأصدقاء :

لم يكن العذال والوشاة والرقباء ومن شاكلهم هم الوحيدين الذين وجدنا لهم حضورا في شعر جميل، فهنالك آخرون من أعضاء المجتمع البدوي، وهنالك أيضا أهل الشاعر نفسه وأهل بثينة؛ يقول جميل[37]:

فإني عرضت الود حتى رددته

وحتى لحى فيك الصديق وكشح

فأشمت أعدائي وسيئ بما رأى

صديقي ولا في مرجع كنت أكدح

ويقول[38]:

وقال خليلي إن ذا لصبابة

ألا تزجر القلب اللجوج فيلحق

تعز وإن كانت عليك كريمة

لعلك من رق لبثنة تعتق

فقلت له إن البعاد لشائق

وبعض بعاد البين والنأي أشوق

ويقول[39]:

لقد لامني فيها أخ ذو قرابة

حبيب إليه في ملامته رشدي

وقال أفق حتى متى أنت هائم

ببثنة فيها لا تعيد ولا تبدي

فقلت له فيها قضى الله ما قضى

علي وهل فيما قضى الله من ردِّ

لقد تضمنت الشواهد السابقة ذكرا لأصدقاء الشاعر، ولكن هذا الذكر ليس بعيدا عن تجربته العذرية التي استغرقت شعره كله إلا قليلا لا يكاد يذكر؛ فهؤلاء الأصدقاء – الذين ذكرهم – لا يقعون ضمن دائرة العذال والوشاة والرقباء والكاشحين – الذين استعرضنا وجودهم في شعره في الصفحات السابقة – ولكنهم مخلصون للشاعر ويتوخون مصلحته، ولكنا وجدناهم غير راضين عما وصل إليه الشاعر من هيام وشغف في تجربته العذرية، بل كانوا يقسون عليه ويعنفونه ليترك عشق بثينة الذي أورده المهالك، ولو كان في تجربته تلك خير له لما ذهبوا إلى ذلك العتب الشديد، والنصح القاسي، ولكن جميلا مثلما رفض مساعي الوشاة والعذال، رفض نصح الاصدقاء معتذرا، بعد أن فقد عزمه وإرادته، وصار في يد الهوى قياده.

الناس عامة :

ولعامة الناس وجود في شعر جميل؛ لكنه وجود مرتبط بالتجربة العذرية، يقول جميل [40]:

يقولون صبّ بالغواني موكل

وهل ذاك من فعل الرجال بديع

وقالوا رعيت اللهو والمال ضائع

فكالناس فيهم صالح ومضيع

ويقول[41]:

يقولون مهلا يا جميل وإنني
لأقسم مالي عن بثينة من مهل

ويقول[42]:

لكي ما يقول الناس مات ولم أهن
عليك ولم تنبت منك قرون
يقولون ما أبلاك والمال غامر
عليك وضاحي الجلد منك كنين
فقلت لهم : لا تعذلوني وانظروا
إلى النازع المقصور كيف يكون

هذه الشواهد ونحوها لا تصور مواقف الأصدقاء، ولا مواقف الأعداء، ولكنها فيما يبدو تعكس موقف عامة الناس في ذلك المجتمع من جميل وتجربته العذرية، وهو – كما ترى – موقف لم يكن إيجابيا، ولكنه يقترب من موقف الأصدقاء.

ويقرر الشاعر في أكثر من موطن أنه في غنى عن وسطه الاجتماعي قريبهم وبعيدهم، لقد اختزلت بثينة كل ذلك الوسط الاجتماعي في شخصها، وقد قيل إن التجربة العذرية انزواء عن المجتمع وعن العمل الاجتماعي والمشاركة الاجتماعية، ومن هنا فإن العشق الشديد يتقاطع سلبا مع الحضارة، لأنه رحيل إلى الداخل، وانزواء عن الخارج[43] ؛ يقول جميل[44]:

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها
فما أسال الدنيا ولا أستزيدها

ويقول[45]:

هي البدر حسنا والنساء كواكب
فشتان ما بين الكواكب والبدر

ويقول[46]:

إذا ما نظمت الشعر في غير ذكرها
أبى وأبيها أن يطاوعني شعري

ويقول[47]:

وأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وإن شئت بعد الله أنعمت باليا

ويقول[48]:

حببت الأيامى إذ بثينة أيم
فلما تغنت أعلقتني الغوانيا

ويقول[49]:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
وأشبهه أو كان منه مدانيا

ويقول[50]:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني
بثينة لا يخفى علي كلامها

فأي مشاركة اجتماعية ممكن أن تنتظر من شاعر عاشق، وصل به الأمر إلى هذا المستوى من الشرود الاجتماعي والاغتراب والعزلة، فلم يعد له أمل في دنياه غير ود بثينة، وهي تغني عن جميع النساء، بل هي كل النساء، ولم تعد بثينة منافسا اجتماعيا طاغيا فحسب؛ ولكنها كذلك منافس شعري طاغٍ؛ لقد أقصت الموضوعات الشعرية كما أقصت أفراد المجتمع، وأقصت جميع الأماني من دونها، على أنها في الأخير امرأة اعتيادية، ولكن التجربة العذرية نفسها ليست اعتيادية، فهي التي توجت بثينة ملكة على قلب جميل وحياته وعقله وشعره وعلاقته بالآخرين، وزمانه ومكانه وطموحه، لقد كانت علاقته بالناس والأشياء منطلقة من عشقه الجنوني لبثينة، حتى وصل الأمر إلى أن يتنازل عن نعم الله – تعالى– في جسده التي بدونها يصبح معاقا ناقصا، وهل هناك ما هو أغلى وأهم من السمع والبصر لدى الإنسان؟! لقد تمنى أن يفقدهما في سبيل أن تقوده بثينة، فلا يرى شيئا ولا يسمع صوتا إلا كلامها وهو موضع التمني .

ولا نرى في ذلك مجرد مبالغة شعرية أو تهويلا، فالمبالغة هنا ليست في الشعر ولكنها في الشعور الذي صار شعرا عند العذريين[51].

وفضلا عما تقدم فقد كانت بثينة أيضا منافسا دينيا؛ يقول الشاعر[52]:

وبين الصفا و المروتين ذكرتكم
بمختلف والناس ساع وموجف

ويقول[53]:

أصلي وأبكي في الصلاة لذكرها
لي الويل مما يكتب الملكان

فهذا الحضور الكثيف لبثينة يمثل غيابا لكل ما سواها ومن سواها، لكنه وهو في هذا الاغتراب السحيق كان يشرك بثينة أحيانا في ذلك الاغتراب؛ إذ يقول[54]:

أرى كل معشوقين غيري وغيرها
يلذان في الدنيا ويغتبطان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

فهذان البيتان يوحيان بأن الوسط الاجتماعي للشاعر لم يعادِ كل تجارب الحب، إلا ما كان منها على شاكلة تجربة جميل، وهذا أمر طبيعي، فمن غير المعقول أن تكون تجارب الحب في البادية كلها أخفقت فتحولت إلى أزمات، فالحب والزواج ظاهرة إنسانية فطرية في كل المجتمعات، وإن اختلفت مظاهر ذلك وتفاصليه من زمن إلى زمن ومن مجتمع إلى آخر، ويبدو أن الشعر لدى العشاق العذريين أزم الموقف واستفز أهل المحبوبة، فحرم العاشقون من الزواج ممن شهروا بهن.

إن الظاهرة العذرية لم تشمل مجتمع البادية كله، ولكنها اقتصرت على ما سماه الدكتور الطاهر لبيب بـ (الزمرة العذرية) وهي فئة في ذلك المجتمع[55]؛ فتصعدت الأزمة العذرية وحصل الحرمان والمنع، وشاعت قصصهم وأخبارهم بين الناس فتربصوا بهم وراقبوهم وزادت حدة الصراع، ومضى الشعر يرصد كل ذلك ويقويه ويلفت الانتباه إليه في وسط اجتماعي بدوي محافظ ومحروم ومغلق وفارغ ومهمش وفقير، ولكنه – في الوقت ذاته – لا يهمل بيت شعرٍ كما ذكر العقاد[56].

يقول الشاعر واصفا حاله وبثينة[57]:

يعيشان في الدنيا غريبان أينما
أقاما وفي الأعوام يلتقيان

فالأعوام تمر، ولكن الناس لم ينسوا القصة، ولم يغادروا مواقع الرقابة للمحبين العذريين، ربما لأن الشعر العذري كان يغذي القصة ويعززها، ولأن التغيير الاجتماعي في البادية بطيء؛ فتكون الرتابة والتكرار سيدي الموقف، فهما هنا غريبان حتى إن كان كل منهما بعيدا عن الآخر، لأن كلا منهما يذكر بالآخر لدى الناس، لقد عرف جميل ببثينة كما عرفت به، حتى انعكس ذلك على اسمه فقيل: (جميل بثينة).

ويصل الشاعر إلى أقصى مراحل غربته واغترابه، ويتجسد ذلك في موته المتوقع، وطريقة ذلك الموت ومكانه، وإبلاغ المحبوبة وحدها بذلك؛ إذ يقول[58]:

فإن وجدت نعل بأرض مضلة
من الدهر يوما فاعلمي أنها نعلي

فهذا رثاء للذات أكثر من كونه غزلا. وقد ألف استاذنا – المرحوم بإذن الله– الدكتور عناد غزوان كتابا عنوانه (المرثاة الغزلية في الشعر العربي) مستعرضا مضامين الرثاء في الغزل العذري[59].

وفي حين أن الانتماء عند الإنسان حاجة ملحة ورغبة فطرية: مثل رغبة البقاء وغيرها؛ نجد الشاعر شاردا عن أي رغبة في الانتماء إلى ذلك المجتمع أو إلى فئة منه ، ولكننا نجد في مثل قوله[60]:

وما وجدت وجدي بها أم واحد
ولا وجد النهدي وجدي على هندِ
ولا وجد العذري عروة إذ قضى
كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي

وقوله[61]:

قد مات قبلي أخو نهد وصاحبه
مرقش واشتفى من عروة الكمد
وكلهم كان من عشق منيته
وقد وجدت بها فوق الذي وجدوا

إني لأحسب أو قد كنت أعلمه
أن سوف توردني الحوض الذي وردوا
إن لم تتلني بمعروف تجود به
أو يدفع الله عني الواحد الصمد

نجد انتماء من نوع خاص يعزز اغتراب الشاعر عن مجتمعه، إنه انتماء إلى أولئك العشاق الشعراء قبله الذين قضوا في سبيل التجربة العذرية.

لقد قيل عن مجنون ليلى إنه كان يهيم في البراري لا يأنس إلى من يحدثه ولا يسمع، حتى إذا ذكر له قيس بن ذريح وشعره في لبنى هش نحو محدثه، وأنس به واستمع له[62]. فهل نستطيع أن نسمي ذلك (الانتماء العذري)؟.

أهل بثينة :

ولأهل بثينة وجود في شعر جميل في مواقف مختلفة أكثرها سلبية وعدائية، كقوله على لسان بثينة [63]:

وأخشى بني عمي عليك وإنما
يخاف ويبقي عرضه المتفكر
وأنت امرؤ من أهل نجد وأهلنا
تهام فما النجدي والمتغور
غريب إذا ما جئت طالب حاجة
وحولي أعداء وأنت مشهر
وقد حدثوا إنا التقينا على هوى
فكلهم من حمله الغيظ موقر
فقلت لها يا بثن أوصيت حافظا
وكل امرئ لم يرعه الله معور
فإن تك أم الجهم تشكي ملامة
إلي فما ألقى من اللوم أكثر
سأمنح طرفي حين ألقاك غيركم
لكي مايروا أن الهوى حيث أنظر

فهي توصيه بالحذر من أهلها كما كانت تفعل كذلك من الوشاة والعذال وسائر الأعداء، لقد سبرت أغوارهم بثينة وعرفت مدى غيظهم من جميل فطفقت تنصح وتحذر خوفا عليه وعليها وعلى تجربتهما العذرية، فحول الشاعر كلامها إلى نسيج شعري كعادته من باب الاسترجاع والتذكر؛ ويقول مخاطبا بثينة [64]:

لعمرك ما خوفتني من مخافة
بثين ولا حذرتني موضع الحذر
فأقسم لا يلفي لي اليوم غرة
وفي الكف مني صارم قاطع ذكر

ويقول[65]:

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقالوا جميل بات في الحي عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
وفي البيت ليث الغاب لولا مخافة
على نفس جمل والإله لأرعفوا
هممت وقد كانت مرارا تطلعت
إلى حربهم نفسي وفي الكف مرهف

وقوله[66]:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي
وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعا من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفوني
يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا
ولو ظفروا بي خاليا قتلوني
وكيف ولا توفي دماؤهم دمي
ولا مالهم ذو ندهة فيدوني

تكشف الشواهد السابقة أزمة العلاقة بين جميل عاشقا وشاعرا وأهل بثينة، فهم يترصدونه ليقتلوه، وهو شاكي السلاح، جاهز للمنازلة والدفاع عن النفس، وعلى الرغم من أنه أسير حب بثنية فتاتهم؛ فإنه يذهب إلى تفوق نسبه عن نسبهم فهم ليسوا ندا له ولا لقبيلته، فلم تذب النزعة القبلية عند جميل في نار التجربة العذرية رغم سعيرها، ولكنها لم تظهر بمنأى عن هذه التجربة؛

لقد ذكر صاحب الأغاني أن أهل جميل أقوى نسبا من أهل بثينة[67].

وجميل لا يبالي بتهديد أهلها ولا بوعيدهم، فما برح يكر على حي بثينة مصرا على زياراته المحمومة يقول[68] :

ولو أن ألفا دون بثنة كلهم

غيارى وكل حارب مزمع قتلي

لحاولتها إما نهارا مجاهرا

وإما سرى ليل ولو قطعت رجلي

لقد امتزجت فروسية جميل وشجاعته بدوافع العشق الشديد؛ فولدت هذا الإصرار والتحدي في سبيل لقاء المحبوبة، وكأني بالعذريين في العصر الأموي يشبهون الصعاليك في العصر الجاهلي، غير أن دوافع العذريين روحية نفسية، ودوافع الصعاليك مادية اقتصادية واجتماعية في الغالب.

لقد كره جميل الناس وأحبهم انطلاقا من تجربته العذرية، ومن موقفهم منها سلبا أو إيجابا، ومن قربهم من بثينة وعلاقتهم بها؛ يقول[69]:

وقالوا يا جميل أتى أخوها

فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

أحبك إن نزلت جبال حسمى

وإن ناسبت بثنة من قريب

فمنزلة أخي بثينة من الشاعر قدرتها بثينة نفسها، فهو حبيب لأنه أخو الحبيب وهكذا الأقرب فالأقرب، حتى الذين يسكنون جبال حسمى يحبهم الشاعر لا لشيء ولكن لأنهم يحلون حيث تحل بثينة.

ولم يغب زوج بثينة التعس عن المشهد العذري؛ فقد ورد ذكره مرات في شعر جميل، وهو طرف معادٍ ولكنه صاحب حق، فقد كان أقرب إلى المجني عليه منه إلى الجاني، وقد رأى بعض النقاد أن تلك اللقاءات التي كانت تعقد بين جميل وبثينة كانت على حساب كرامة الزوج[70] .

يقول الشاعر[71]:

لقد أنكحوا جهلا نبيها ضعينة

لطيفة طي الكشح ذات شوى خدل

فزواج نبيه من بثينة يعد جهلا في نظر جميل، فهو لا يستحقها وهي لا تريده، ولكن ذلك المجتمع الذي ساعد في إخفاق الوصال الشرعي بين العاشقين رفض أن يخرج منه رجل سوي يتقدم ليخطب بثينة، بعد أن شهرت بجميل وشهر هو بها، فما كان من أهلها إلا أن زوجوها نبيها هروبا بها من جميل ومن كلام الناس.

قال العقاد يذكر بثينة وزوجها: " وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروغها ولا تهابه ولا تشعر بحماه. فلولا أن(بني الأحب) كانوا في ذلك الحين كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه، بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل"[72].

ويقول الشاعر[73]:

إذا جئتها يوما من الدهر زائرا

تعرض منقوص اليدين صدود

يصد ويغضي عن هواي ويجتني

ذنوبا عليها إنه لعنود

فأصرمها خوفا كأني مجانب

ويغفل عنا مرة فنعود

ومن يعط في الدنيا قرينا كمثلها

فذلك في عيش الحياة رشيد

فلئن يكن الوسط الاجتماعي قد جنى على جميل وبثينة، فإنهما قد جنيا على هذا الزوج البائس الذي أوقعته ملابسات الظاهرة العذرية في هذا الدور الذي قام به.

أهل جميل:

ولم ينس جميل أهله في خضم تلك التجربة العشقية والشعرية، ولكن ذكرهم قليل في ديوانه، وهو ذكر ارتبط بمأساته في العشق، التي أصاب ضرها أهله؛

يقول الشاعر بعد أن وبخه أهله على ما لج فيه من الهوى[74]:

ألا من لقلب لا يمل فيذهل
أفق فالتعزي عن بثينة أجمل
سلا كل ذي ود علمت مكانه
وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحببت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل

فهذا عتاب النفس للنفس بعد أن وبخه أهله، فهنالك صوت في داخله يرفض هذا التمادي الذي أورده المهالك، ولكن صوت الهوى كان أكبر.

ويقول[75]:

فياويح نفسي حسب نفسي الذي بها
وياويح أهلي ما أصيب به أهلي

فهذا الشاهد أقرب إلى الرثاء منه إلى الغزل، لقد فقد الإرادة والتوازن ووصل إلى مكان قصي في بيداء العشق المهلكة، بعد أن استدرجه الهوى شيئا فشيئا، ولم يكن ثمة أمل في العودة، فكان ذلك وبالا على نفسه ومصابا في أهله.

المنافسون:

وممن ذكرهم جميل في شعره –فضلا عمن ذكرناهم في الصفحات السابقة –نجد المنافسين له في حب بثينة، والمنافسات لبثينة في حبه:

يقول جميل[76]:

وكم من بديل قد وجدت وطرفة
فتأبى علي النفس تلك الطرائف

ويقول[77] :

فلرب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تستر
حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو أن في صدري كقدر قلامة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلي

فمثل هذه الشواهد لا تدخل في باب العذل والعداء، ولكنها إلى المنافسة والمزاحمة أقرب، ولكن هذه المنافسة قد تؤدي إلى العذل والعداء، بيد أن جميلا قد استحكم به عشق بثينة فلم يكن يرى إلا إياها كما ذكرنا من قبل؛ فقد روي أنه "استعدى أهل بثينة على جميل مروان بن هشام الحضرمي، وكان واليا من قبل عبدالملك بن مروان على تيماء – وقيل : ربعي بن دجاجة – فتوعده، فمضى مستخفيا إلى الشام، وقيل إلى سيد من بني عذرة، فأحسن مكانه، وزين سبع بنات له، رجاء أن يعلق واحدة منهن فيزوجه بها، فكن يرفعن الخباء إذا أقبل جميل، ففطن لذلك ، فأنشد:

حلفت لكي تعلمن أني صادق
وللصدق خير في الأمور وأنجح
لتكليم يوم من بثينة واحد
ورؤيتها عندي ألذ و أملح
من الدهر لو أخلو بكن وإنما
أعالج قلبا طامحا حين يطمح

فقال الرجل: أرخين الخباء فوالله لن يفلح ابدا " [78].

ويقول جميل[79]:

بثينة قالت يا جميل أربتني
فقلت كلانا يا بثين مريب
وأريبنا من لا يؤدي أمانة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب

فعلى اشتهار قصتهما وتعلق كل منهما بالآخر، فإن ثمة مساحة بقيت من الشك والارتياب وعدم التحقق من الإخلاص الكامل بينهما، ولعل هذا دأب المحبين في الشك والوساوس والهواجس؛ ولعل شيوع قصتهما العذرية جعل من النساء من تتعرض لجميل، ومن الرجال من يحاول لبثينة، ولكن كل ذلك كان على هامش التجربة العذرية بين جميل وبثينة، مثل ذلك

الاستثناء الذي يعزز القاعدة، ويدخل في ذلك قول جميل معاتبا بثينة [80]:

بعيد على من ليس يطلب حاجة

وأما على ذي حاجة فقريب

فهو يتهم بثينة بأنها تصل آخرين، وأنهم ينالون منها حاجة، ملمحا إلى أمور حسية في حين أنها بعيدة عنه ومحجوبة منه، في حين أنه ليس بطالب حاجة حسية كما يريد الآخرون؛ ولعل ذلك هواجس محب مأزوم ومحروم، وغيرة عاشق قليل الحيلة مقصى من المحبوب، في حين كانت بثينة غير مراقبة في تعاملها مع الآخرين من غير جميل في ذلك الوسط الاجتماعي بمن فيهم الرجال، مثلما لم يكن جميل يخشى منه أو يستراب في غير ديار بثينة، لأن المجتمع البدوي كما ذكر العقاد – رحمه الله – يفرض الرقابة ويستنفر حذرا حين تكون هناك ريبة أو شبهة[81].

ويدخل ضمن هذه المنافسة ما قاله جميل في مواطن قليلة يتغزل بالنساء الجميلات بوجه عام، غزلا يعبر عن نزعة الرجل وميوله نحو النساء وجمالهن؛ إذ يقول[82]:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأي جهاد غيرهن أريد

وأحسن أيامي وأبهج عيشتي

إذا هيج بي يوما وهن قعود

ويقول[83]:

وبيض رعابيب تثني خصورها

إذا قمن أعجاز ثقال وأسوق

غرائر لم يعرفن بؤس معيشة

يجن بهن الناظر المتنوق

فهذه الشواهد وما شاكلها قليلة في شعر جميل، فليس فيها ذكر لبثينة ولا إشارة، وفيها غزل عام حسي، بعيد عن ذلك الغزل العذري الذي وسم بالقهر والحرمان وحديث الروح وشكوى المعاناة وغيرها.

فلعل جميلا بمثل هذه الشواهد يقلد معاصره عمر بن أبي ربيعة، ولعله قالها قبل أن يعلق بثينة، وقبل أن يلج في عشقها، فطبيعة جميل كما يبدو طبيعة غزلة محبة للجمال والنساء بوجه عام، ولكن حبه بثينة غلب عليه واستأثر بما عداه في تلك البيئة المغلقة المحافظة.

وجاء في أخبار جميل وبثينة أن الأخيرة تعلقت برجل اسمه حجنة الهلالي، ووصلته ووصلها، وأنها تركت حب جميل[84] ؛ يقول جميل في ذلك[85]:

فيا بثن إن واصلت حجنة فاصرمي

حبالي وإن صارمته فصليني

ولا تجعليني أسوة العبد واجعلي

مع العبد عبدا مثله وذريني

وسواء أكان حجنة الهلالي عبدا أم حرا، فقد انجرح جميل في كبريائه وفي مشاعره، وعلى الرغم من تعلقه ببثينة، فإنه لم يرضَ بوصل منها مادامت على علاقة بذلك الطارئ حجنة الهلالي، ولكن سرعان ما انطوت هذه العلاقة الطارئة بين بثينة وحجنة ليعود الأمر إلى مجراه الطبيعي، ولعل هذه العلاقة الطارئة نفسها كانت عرضا من أعراض العلاقة المأزومة بين جميل وبثينة ولم تكن بديلة عنها، أي كانت من تداعيات التجربة الأصلية.

السلطان :

وللسلطان ذكر في شعر جميل، وهو ذكر مرتبط بالظاهرة العذرية التي استغرقت حياة الشاعر وشعره.

فحين أوغل جميل في زياراته المحمومة لحي بثينة، واستمات ليلقاها هنا أو هناك بين حين وآخر، وحين لم تستطع قبيلة بثينة أن تقتل جميلا خوفا من شوكة قبيلته التي كانت أقوى منها؛ حين ذاك استعدى أهل بثينة عامل بني مروان على وادي القرى فأباح الوالي دم جميل لهم، فما كان منه إلا أن ينزح من وادي

القرى؛ إذ يقول في ذلك[86] :

ألم خيال من بثينة طارق
على النأي مشتاق إلي وشائق
سرت من تلاع الحجر حتى تخلصت
إلي ودوني الأشعرون وغافق
وهجرك من تيما بلاء وشقوة
عليك مع الشوق الذي لا يفارق

وقوله[87]:

أتاني عن مروان بالغيب أنه
مبيح دمي أو قاطع من لسانيا
وفي الأرض منجاة وفسحة مذهب
إذا نحن رققنا لهن المثانيا

ففي البيتين ذكر لخبر إباحة دمه، فضلا عن التهديد بقطع لسانه، وهذا بسبب تشبيبه ببثينة وإلحاحه على زيارتها.

فبعد أن كان ما كان أدرك جميل أن الأرض واسعة وأن له أن يضطرب فيها، وكان عليه أن يدرك من قبل أن الأرض أوسع من وادي القرى، وأن بثينة واحدة من النساء لا أقل ولا أكثر .

وقال[88] :

أضر بأخفاف البغيلة أنها
حذار ابن ربعي بهن رجوم

فالمشار إليه في البيت هو عامر ابن ربعي وكانت بلاد عذرة تحت إمرته، وكان قد طلب جميلا بعد أن شكاه أهل بثينة إليه، لقد أضر ببغلته شدة السير هربا من الوالي وهذه كناية عن الضر الذي لحق بالشاعر نفسه.

الخاتمة:

بدا واضحا تداخل عمل الوشاة والعذال والرقباء وغيرهم من الأعداء في التجربة العذرية والشعرية عند جميل بن معمر الذين جمعهم العلماء تحت مصطلح (آفات العشق). وقد لاحظ البحث حملة الشاعر على كل هؤلاء، والدعاء عليهم، بيد أنه كان أكثر تحملا لما يفعلون، وأقل مبالاة من محبوبته بثينة التي بدت أشد حذرا وتحذيرا من هؤلاء، ولكن كل ذلك الحذر والتحذير قد باح بهما جميل في شعره.

لقد كان أثر هؤلاء الذين يعدون جزءا كبيرا من الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه الشاعر أثرا سلبيا صعّد من التجربة العذرية وأزمها وشارك في فشلها، لقد كان جميل أشد رفضا لهذه الآفات التي بلي بها العشاق من عذال ورقباء وواشين ومخبرين ومستخبرين وغيرهم، وقل ما أبدا تخوفا منهم، رغم أثرهم السلبي العميق في مسيرة التجارب العذرية بوجه عام، وكثيرا ما ذهب إلى أن مثل هذا التربص بالمحبين لا يزيدهم إلا تعلقا وإمعانا في العشق، لاسيما مع الذين لج بهم الهوى وذهب بهم كل مذهب، وكان يعلّم بثينة في شعره كيف ترفض تلك الضغوط التي يفرضها العذال وغيرهم عليها.

وكان لأصدقاء الشاعر وجودهم في شعره؛ وقد بدوا مشفقين عليه مما أصابه من الهوى الشديد، فاتخذوا موقف الناصح المتعاطف الحريص منه. ومثل ذلك كان أهل الشاعر في تعاملهم معه، ولكن من غير جدوى، فبدا أهله وكأنهم قد فقدوه إلى الأبد؛ لأنه صار هائما معطل الإرادة إلى حد أنه كان يرثي نفسه لأهله.

ولم يكن موقف عامة الناس من تجربة جميل وبثينة إيجابيا، ولا حتى محايدا، ولكن اقترب من الموقف السلبي من التجربة العذرية، وإن كان أقرب في تعاطفه إلى موقف أهل الشاعر وأصدقائه.

ولم يكن غرض البحث أن يتتبع صورة بثينة في شعر جميل؛ لأن غرضه هو تتبع صورة المجتمع الذي عاش في وسطه الشاعر، ولكننا وجدنا بثينة تفرض نفسها في كل معاني شعر الشاعر، لقد صرح الشاعر مرارا – كما مر بنا – أن بثينة تعني له كل الناس وكل شيء، لقد حلت محل المجتمع من حوله، ومحل الأهل والأشياء، وهذا يدل على انزواء الشاعر

واغترابه عن وسطه الذي عاش فيه من غير أن يحظى بالزواج من بثينة.

وممن مر بهم الشاعر في تجربته العذرية التي استغرقت حياته كلها؛ هم أهل بثينة من أب وأخوه وأبناء عم وزوج فكلهم غيارى وأعداء له، لقد صور شعره حربهم معه، ومع تجربته العذرية مع بثينة، وبلغ العداء بين الجانبين مبلغا بعيدا، وطالما أعلن في شعره تفوقه القبلي عليهم، ولكننا نجده في مواقف أخرى يحب بعضهم لحب بثينة، ويحب ديارهم وينزل ضيفا عليهم وهو في غنى عن ضيافتهم.

أما زوج بثينة البائس فلم يسلم من مهاجمة جميل إياه، واستنقاصه وعدم المبالاة به مصورا غيرته على بثينة وحرصه الشديد على مراقبة العاشقين.

لقد كان جميل ينتمي إلى عالم الموتى أكثر من انتمائه إلى عالم الأحياء، ولهذا امتزج شعره الغزلي بالرثاء أي رثاء الذات خاصة، لقد اطمأن إلى انتمائه إلى أولئك العشاق العذريين من الشعراء الذين قضوا نحبهم بعد تجارب عذرية شهيرة حدثت في الجاهلية أو في صدر الإسلام أو في أول عصر الأموي، لقد نوه بهم وذكرهم في شعره، وذهب إلى أنه لاقى ما لاقوا وأشد منه، وأن مصيره سيكون مثل مصيرهم، عشقا شديدا وحرمانا فموتا.

وعلى الرغم من أن التجارب العذرية بوجه عام قد عرفت بوحدانية المحبوبة على مستوى الحب والشعر معا، وكذلك وحدانية المحب فإنا وجدنا في شعر جميل ما يبدو خارجا عن هذه القاعدة لكنه في الحقيقة يعززها؛ فقد وجد البحث أن كلا من العاشقين كان يتهم الآخر، ويشك في إخلاصه، ويستريب من سلوكه، كما وجد البحث منافسين لجميل في حب بثينة ولبثينة في حب جميل.

وكان للسلطان وجوده على رأس ذلك المجتمع في شعر جميل مجسدا موقفا سلبيا من تجربة جميل العذرية.

لقد كشف البحث وفق طريقته عن الأهمية القصوى التي يحظى بها التفسير الاجتماعي للظاهرة العذرية في العصر الأموي؛ من خلال تتبع موقف أفراد مجتمع الشاعر جميل بثينة في شعره من تجربته العذرية بوصفها مثالا لتجارب العذريين الآخرين.

الهوامش:

(1) ينظر طوق الحمامة في الألفة والألاف، للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة، مصر، ص76 ،81 ،84، والحب في التراث العربي، د. محمد حسن عبدالله، عالم المعرفة ، 36 ، الكويت ، ديسمبر 1980م ، ص99 وما بعدها.

(2) ديوان جميل، شاعر الحب العذري، جمع وتحقيق وشرح، د.حسين نصار، دار مصر للطباعة ، د.ت

(3) ، ص90و91 .

(4) م.ن ،ص128 .

(5) ينظر الزمن في الشعر العذري في العصر الأموي ، رسالة ماجستير مقدمة من ناصر الخضر عبدربه أح، ص22 .

(6) م.ن : ص63 و 64 .

(7) ينظر : م.ن ، ص180 .

(8) م.ن : ص46 .

(9) ينظر كتاب الأغاني للإمام أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق : علي النجدي ناصف ، مؤسسة جمال ، بيروت ، لبنان ، ج7 / ص76 . وجميل بثينة : ص21 وما بعدها .

(10) ديوان جميل مد مرياش ، قسم اللغة العربية ، كلية التربية عدن ، جامعة عدن ، إشراف د. عبده يحيى صالح الدباني ، 2014م ، ص35 وما بعدها .

(11) ينظر جميل بثينة ، عباس محمود العقاد ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، سلسلة اقرأ : 13 ، القاهرة ، مصر ، ص28 ، والبيت في ديوان جميل ص79 .

(12) ديوان جميل ، ص165 .

(13) م.ن ، ص79 .

(14) م.ن ، ص69 .

(15) م.ن ، ص75 .

(16) م.ن ، ص104 .

(17) م.ن ، ص50 .

(18) ديوان جميل بثينة ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ص66 .

(19) صحيح سنن ابن ماجه ، تأليف : محمد ناصرالدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،طبعة اولى ، 1986م ، ج1 /ص310 .

(20) ديوان جميل ، ص83 .

(21) م.ن ، ص190.

(22) م.ن ، ص127 .

(23) م.ن ، ص176 .

(24) م.ن ، ص59 .

(25) ينظر الزهرة ، لأبي بكر محمد داؤد الأصفهاني ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الثانية ، 1985م ، ص182و183و184 . ونقد الغزل العذري في العصر الأموي قديما وحديثا دراسة تقويمية ، أطروحة دكتوراه ، عبده يحيى صالح ثابت الدباني ،قسم اللغة العربية ، كلية الآداب جامعة الموصل ، العراق ، 2003م .

(26) ينظر شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، طبعة 1 . 1952م ، ص84 وما بعدها .

(27) ديوان جميل ، ص49 .

(28) م.ن ، ص 107 .

(29) م.ن ، ص177 .

(30) م.ن ، ص201 .

(31) م.ن ، ص 221 .

(32) م.ن ، ص143 .

(33) م.ن ، ص174 .

(34) م.ن ، ص166 .

(35) ينظر جميل بثينة والحب العذري ، د.خريستو نجم ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان : 1982م ، ص117 .

(36) ديوان جميل ، ص208 .

(37) صحيح مسلم للإمام مسلم ابن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر ، ج2 / ص886 ، رقم الحديث 1218 .

(38) ديوان جميل ، ص 47 .

(39) م.ن ، ص145 .

(40) م.ن ، ص 73 .

(41) م.ن ، ص 121 .

(42) م.ن ، ص 174 .

(43) م.ن ، ص 199 .

(44) ينظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، لشمس الدين أبي عبدالله محمد ابن قيم الجوزية ، تحقيق : بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الاولى ، 2000م ، ص251 . والغزل العذري دراسة في الحب المقموع ، د.يوسف اليوسف ، دار الحقائق ، بيروت لبنان، الطبعة الثانية . 1982م، ص15 وما بعدها .

(45) ديوان جميل ، ص69 .

(46) م.ن ، ص 104 .

(47) م.ن ، ص 105 .

(48) م.ن ، ص 220 .

(49) م.ن ، ص223 .

(50) م.ن ، ص122 .

(51) م.ن ، ص193 .

(52) ينظر نقد الغزل العذري في العصر الأموي قديما وحديثا ، ص79 .

(53) ديوان جميل ، ص130 .

(54) م.ن ، ص200 .

(55) م.ن ، ص200 .

(56) ينظر: سوسيولوجيا الغزل العربي، الغزل العذري نموذجا ، د.الطاهر لبيب ، ترجمة : مصطفى السناوي ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية، 1988م ، ص129 وما بعدها .

(57) ينظر: جميل بثينة ، ص22 .

(58) ديوان جميل ، ص200 .

(59) م.ن ، ص175 .

(60) ينظر : المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د.عناد غزوان ، مطبعة الزهراء ، بغداد، الطبعة الاولى، 1974م ،ص33 وما بعدها .

(61) ديوان جميل ، ص75و 76 .
(62) م.ن ، ص 59 و 60 .
(63) ينظر : الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1977م ، ج2/ص570 .
(64) ديوان جميل ، ص91 و92 .
(65) م.ن ، ص 81 .
(66) م.ن ، ص 134 .
(67) م.ن ، ص 206 و207 .
(68) ينظر : الأغاني ، ج 7 /ص 89 .
(69) ديوان جميل ، ص171 .
(70) م.ن ، ص 35 . ومثلما ذكر جميل أخا بثينة ذكر بيتها استحبابا وتعلقا إذ قال :أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها ... وأهلي قريب موسوعون ذوو فضل ، الديوان ، ص177 .
(71) ينظر في الحب والحب العذري ، د.صادق جلال العظم ، نشر وتوزيع دار الجرمغ ، الطبعة الرابعة ، ص82 وما بعدها . و الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث ، محمد بلوحي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 2000 م ، ص120 .
(72) ديوان جميل ، ص175.
(73) جميل بثينة ، ص 33 .
(74) ديوان جميل ، ص66 .
(75) م.ن ، ص 159 .
(76) م.ن ، ص 175 .
(77) م.ن ، ص 126 .
(78) م.ن ، ص 178 و 179 .
(79) م.ن ، ص 43 .
(80) م.ن ، ص 29 .
(81) م.ن ، ص 29 .
(82) ينظر : الحب في التراث العربي ، ص329 .
(83) ديوان جميل ، ص67 .
(84) م.ن ، ص 147 و148 .
(85) ينظر :خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تأليف عبدالقادر عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1997م ، ج6 / ص 401 .
(86) ديوان جميل ، ص 209 .
(87) م.ن ، ص 142 و143 .
(88) م.ن ، ص 202 .
(89) م.ن ، ص 192 .

مكتبة البحث:

أولا : الكتب :

1- جميل بثينة ، عباس محمود العقاد ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، سلسلة اقرأ : 13 ، القاهرة ، مصر .
2- جميل بثينة والحب العذري ، د.خريستو نجم ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان : 1982م .
3- الحب في التراث العربي ، د. محمد حسن عبدالله ، عالم المعرفة ، 36 ، الكويت ، ديسمبر 1980م .
4- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تأليف عبدالقادر عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1997م .
5- ديوان جميل ، شاعر الحب العذري ، جمع وتحقيق وشرح ، د.حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، د.ت .
6- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، لشمس الدين أبي عبدالله محمد ابن قيم الجوزية ، تحقيق : بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الاولى ، 2000م .
7- الزهرة ، لأبي بكر محمد داؤد الأصفهاني ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الثانية، 1985م.
8- سوسيولوجيا الغزل العربي ، الغزل العذري نموذجا ، د.الطاهر لبيب ، ترجمة : مصطفى السناوي ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1988م .
9- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، طبعة 1 . 1952م .
10- الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث ، محمد بلوحي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 2000 م .
11- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، 1977م .
12- صحيح سنن ابن ماجه ، تأليف : محمد ناصرالدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،طبعة اولى ، 1986م .
13- صحيح مسلم للإمام مسلم ابن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .
14- طوق الحمامة في الألفة والألاف ، للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، مصر.
15- الغزل العذري دراسة في الحب المقموع ، د.يوسف اليوسف ، دار الحقائق ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية . 1982م .
16- في الحب والحب العذري ، د.صادق جلال العظم ، نشر وتوزيع دار الجرمغ ، الطبعة الرابعة .
17- كتاب الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق : علي النجدي ناصف ، مؤسسة جمال، بيروت ، لبنان .
18- المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د.عناد غزوان ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1974م .

ثانيا : الرسائل الجامعية :

1- الزمن في الشعر العذري في العصر الأموي ، رسالة ماجستير مقدمة من ناصر الخضر عبدربه أحمد مرياش ، قسم اللغة العربية ، كلية التربية عدن ، جامعة عدن ، إشراف د. عبده يحيى صالح الدباني ، 2014م .
2- نقد الغزل العذري في العصر الأموي قديما وحديثا دراسة تقويمية ، أطروحة دكتوراه ، عبده يحيى صالح ثابت الدباني ،قسم اللغة العربية ، كلية الآداب جامعة الموصل ، العراق ، 2003م .

The Image of Jamil Buthaina Society in His Poetry

Abstract

The phenomenon of platonic parthenogenesis in the Umayyad period attracted the attention of students in the past and present due to its importance, originality and its link by time and place. If the old Arab criticism got satisfied with marking the main characteristics that distinguished the phenomenon from others and its poets from others, the new Arab criticism approached this phenomenon basing on contextual and systemic criticism approaches that lit many of its aspects. Although, major literary phenomena in our heritage remains in need of further disclosure by studying its parts carefully to reinforce previous results or to reach new results. Hence, this research made part of this unique phenomenon its scope of study and this part is: the image of the society of the poet Jamil Bin Muammar as reflected in his poetry by tracking members of the community where the poet lived such as his relatives, others, and the public that appeared in his poetry whether as individuals or groups. These points will be addressed without discussing the image of Buthaina in Jamil's poetry. Since, it is the other half of the platonic experience that we seek to know the attitude of the society towards it positively and negatively. But Buthaina will impose herself on this research in different positions, especially when the poet considers her as an alternative to the community or to some of its members or to important things in his life.

We are not of those who are considering poetry as a compelling document through its contents of gloss, ideas and incidents, but we find that the platonic parthenogenesis is not artistic or intellectual luxury but an expression of historical, social and realistic issue.

Further, we did not resort to news and platonic prose stories to know the poet's social relationship with his surroundings, but we interrogated his poetry, which portrayed that relationship and we read his divan line by line to collect the material of our research .

The Poet confined to mentioning all of the enemies, whistle-blowers, the censors, friends, the family of Buthaina and his family. He sometimes indicates the people and sometimes the competitors of Buthaina in his love or the competitors of him in Buthaina's love. The ruler also has not gone unnoticed especially his attitude towards Jamil's poetry and his experience of platonic parthenogenesis.

The research has pointed out the attitudes of all towards this experience irrespective of its negativity and positivity. It revealed the tyranny of the enemies' battlefronts where they have been mentioned frequently in his poetry as well as they have been considered the first suspect in the failed love experience of him and Buthaina. His attitude has been generally hostile and negative...

Friends were not many and were not mentioned so much. They sympathized with the poet's plight and advised him to go beyond it but uselessly. People in general had a similar attitude. His family seemed afflicted because of their son's plight and they looked like grieving over him while he is still alive. Buthaina's family, including her father, husband, brothers and cousins, had permanent presence in Jamil's poetry for their hostile attitude to the point of stalking death.

In sum, the research has pointed out the image of competitors of Jamil in Buthaina's love and competitors of Buthaina in Jamil's love. This was the exception that promoted the unification of the beloved in the platonic parthenogenesis, while the ruler seemed to be in line with the enemies of the phenomenon. Thus, the research has emphasized on the importance of social interpretation of the phenomenon of platonic parthenogenesis beside the other explanations suffered by scholars. In addition, the poet, Jamil Buthaina, has a weak integration into society, i.e. unobtrusive socially, because the ardent love is originally an internal activity not external, especially in the advanced stages.